ثقافة الرسائل في رواية ظِلّ الأفعى " ليوسف زيدان "

أ . م. د سهير صالح أبو جلود
الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب

الملخص:

يتناول هذا البحث رواية ظلّ الأفعى التي تتمح ورحول مكانة المرأة في الفكر والأدب، وحقيقة قدسية الأنثى في الديانات والحضارات القديمة، بعد أن شوهتها العادات والتقاليد الموروثة والمعتقدات الخاطئة التي سادت مفاهيمنا سنوات طويلة، يأتي كلّ ذلك عن طريق نص يتكون من جزأين، الأول نموذج رصده الكاتب تمثّلت صفاته بزوج هو أنموذج للنمط السائد بالرجولة المستبدّة المتباهية بذكورتها وزوجة تتعرّف عن طريق رسائل والدتها – وهو ما يمثّل الجزء الثاني من الرواية – والعثور على هذه الرسائل وقراءتها يشكّ منعطفاً مهما في الرواية، إذ تتعرف بطلة العمل من خلالها على المكانة الحقيقية للمرأة ، إذ تحتوي هذه الرسائل على أناشيد دينية قديمة وترنيمات ممتزجة بمأثورات شعبية تراثية وتاريخية ساهمت جميعها في إعادتنا الى أصل كلّ معلومة لغوياً وتراثياً وحضارياً وتصويبها.

إنّ هذه الرواية تقدّم لنا نوعاً متفرّداً من الفن السردي القائم على تقنية الرسائل؛ لما لها من أثر في توصيل المعلومة الى المتلقي، رواية فيها من الإيحاء الكثير، ومن استبطان الدلالة ما جعلها تضفي ذلك الاستئناس والاندماج مع واقع استطاع الروائيّ أن يدخل فيه فضاءات، أخضع الزمن فيها بتحولات كبرى من هنا احتملت هذه الرواية قراءات متعدّدة، وليست قراءة واحدة كونها حقلاً مفتوحاً للإبداع والتميّز، رواية ذات فكر يرى المرأة فيه من منظور دينيّ صحيح، وإطار فكريّ وثقافيّ متحضّر.

المقدمة:

تتّسم الكتابة عن المرأة في حضارتنا العربية بطابعي التنوع والتعدّد اللذين يوقعان المرء في كثير من الأحيان في حيّز التناقض ، فالبحث عن صورة المرأة في هذه الحضارة هو بحثٌ عن البنى الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي تؤسّس مرجعية خطابها في ثقافتنا بالرغم من أنّه يعدّ بحثاً قاصراً عاجزاً عن استشراف دوائر أوسع من ذلك الضيق المحدّد(١)، فـ((المرأة التي تعدّ جسداً وقولاً وفعلاً، ميدان رحب لممارسة سلطة الأعراف والتقاليد والشرائع ، ولممارسة سلطة النقد كذلك، والخطاب حول المرأة في الفكر العربي الإسلامي وفي المشهد النقدي العربي خطابٌ متنوع ، وكذلك عائد الى كون المرأة حقلاً مفتوحاً للكتابة والإبداع لأنها تحتمل قراءات متعدّدة وليست قراءة واحدة))(٢)

ولقد تفاوت الخطاب حول المرأة في الفكر والأدب، وتراوح من خطابات انفعالية لا ترتكز الى المقوّمات العلمية الى خطابات علمانية الى توفيقية(٣)، ومن ثم دخلت في عدة مستويات في قصائد بجّلتها حيناً وعاتبتها أحياناً كثيرة، وأحاطتها بالغموض تارة وبالرمز والتشبيه تارة أخرى، لكنها حين تدخل عالم الرواية والقصة فإنها تكاد لا تخرج عن الوقوف في محطّات الشهوة

والخيانة، وإذا أراد لها الكاتب أن تتّخذ صورة أخرى، فهي عندئذ الضعيفة الخانعة لسلطة الأب أو المستكينة لحكم الأخ ثم الزوج .

ولسنا هنا في صدد استعراض أنماط المرأة في الرواية العربية، لكنّنا ونحن أمام رواية (ظلّ الأفعى) ليوسف زيدان، لابدّ أن نعترف أنه ليس فقط اختط خطأ آخر خالف فيه ما هو معروف عن صورة المرأة التي مرّ ذكرها بل عرضها بصورة لم نشهدها سابقاً في روايات كتّابنا العرب، فالكاتب تعامل مع المرأة على إنها نسقٌ ثقافي، وعلامة ثقافية من خلال رواية يمكن أن نسميها رواية نسائية على وفق ما فيها من شروط ، ووضعها بعض ممن يرى إن الرواية التي فيها صورة مجرّدة للمرآة، وفيها نبذ للصورة النمطية السائدة لها من حيث هي عاجزة ولا تُعنى بغير التافه والمبتذل العاطفيّ، الى جانب إبداء روح الثورة والتمرّد والإفصاح عمّا يلحق بها من غُبن عن طريق الذكور في مجتمعها بعاداته وتقاليده الموروثة ومعتقداته التي تقلّل من شأنها(٤) ،هي رواية ذات فكر يرى المرأة من منظور فكري وثقافي مختلف .

فبطلة العمل شخصية تكمن فيها سمات التحوّلات الممكن رصدها ، هي القطب الذي منه ينطلق الحدث فوق الطبيعي وعليه يقع ، هي شخصية غنيّة تضافرت في خلقها كثافة تخيلية فوق العادة موجبة من حيث الدلالات التي يمكن أن تنبئ بها في كل موقف حدثي(٥).

فالرواية تحكي تحولات صورة الأنثى في ثقافتنا فهي ترى الصورة وصيرورتها من أفق الأنثى المقدّسة الى ما فعلته الثقافات المتعاقبة المسمّاة بالسامية من تدنيس بشأن المرأة.

الأحداث تقع في ليلة معها يشعر القارئ إنها نتيجة أيام طوال، زوج بسيط بكلّ صفاته يمثّل النمط الذكوري السائد المندفع ، نموذج رصد الكاتب حركة وجوده في الحضارات القديمة ليعود مرة أخرى الى التأصيل التاريخي للظاهرة البشرية والاعتماد على الحضارات ليقدّم لنا آراء تتّصل بالواقع الإنساني المعاصر. يلحظ هذا الزوج أنّ زوجته بدأت تترنّم بكلمات غامضة في خلوة باتت تلجأ اليها مؤخراً، ولا ننسى شعوره بالنقص أمامها بسبب نسب عائلتها وثرائها، وازدياد هذا الإحساس بالنقص حين تمتنع عنه وبشكل مفاجئ، فتثور ثائرته ويلجأ الى جدّ زوجته الذي يمثّل الماضي بتقاليده الصارمة.

كلُّ هذه التغيرات تحدث حين تعثر الابنة الزوجة (نواعم) على رسائل أمها الأستاذة الدارسة للحضارات والتاريخ والأديان والمعبودات القديمة. الأم التي سافرت وتركت المنزل بعد طرد الجدّ لها بعد وفاة زوجها (والد نواعم) هذا الجدّ الصارم تثور ثائرته حين يعلم بعودة الصلة بين نواعم ووالدتها (الكافرة) كما يسميها الجدّ.

تأتي الرواية في إطار نص يتكوّن من نسقين: الأول تفاصيل العلاقة بين الزوج (عبده) والزوجة (نواعم) والثاني:- موضوع بحثنا – على هيئة رسائل.

وقد أتاح حضور فن الرسائل في هذه الرواية (والذي سيكون محور حديثنا) ذلك التلاعب – إن صحّ التعبير– بالأحداث والتصرّف بالزمان والمكان والحدث والشخصية ، من دون مراعاة لأسس النوع الروائي ، محققاً مستوىً تجريبياً آخر باعتماده الرسائل فناً ليشكّل إطاراً جديداً متميزاً لفن السرد وجمالية مختلفة للحدث الروائي .

ونحاول في هذا البحث أن نقدّم تدخّل فن الرسائل بفن الرواية، وأن نوضّح مراوغة سردية سعت الى ترسيخ تقنية الرسالة في المتلقي، فالرسالة في (ظل الأفعى) فرضت هيمنتها الشكلية على الرواية.

ومن فتح هذه الرواية لنافذة جديدة داخل الأنثى من خلال الرسائل ، سيكون الاتجاه في الكتابة نحو الحضارة والتاريخ وبذا سيكون نقداً ثقافياً فضلاً عن كونه نقداً أدبياً ، ومن هنا ارتأينا تقسيم البحث من خلال أنساق الرسائل المختلفة في هذه الرواية في البنية والتركيب الى أربعة مستويات:

١- المستوى اللـــغويّ.

٢- المستوى الدينـــيّ.

٣- المستوى التاريخيّ.

٤- نسق الرســـــائل.

١-المستوى اللغويّ:

نخصّ هذا المستوى بالحديث عن النصف الثاني من الرواية الذي يأتي على شكل رسائل تتحدّث فيها الساردة – الأم – بضمير الأنا، وفيها من البوح بلغة جمالية تثير اهتمام القارئ، وهو اهتمام – كما قال باختين: ((باللّغة في كيانها الملموس الحيّ وليس اللّغة بوصفها مادة نوعية خاصّة بعلم اللغة)) (٦) ، من هنا فأنّ تقديمنا للغة الرسائل هذه الرواية لن تكون بالمعنى الدقيق للّغة ، بقدر ماهي عرض للغة التراثية الحضارية ، عرض للغة هذه الثقافة التي أنتجها يوسف زيدان ، والتي لم تتشكّل من لغات النصوص القديمة والحقائق التاريخية فحسب بل تدخّلت فيها ألوان من الكتابات النقدية ثم الجهود الفكرية الحديثة التي اتخذت من التراث محوراً لاهتمامها.

وأول ما يمكن قوله عن لغة رسائل (ظلّ الأفعى) إنها لغة تعكس مستوى ثقافة الشخصية ونفسيتها، فلغة الرسائل (للأم)، المتخصّصة في دارسة الحضارة والتاريخ والمعبودات القديمة، لغة فيها تمويه في الدلالة، نلمح ذلك عبر عبارات وجمل ممتزجة بمأثورات شعبية تراثية، ودينية، وتاريخية ، مع زخرف يضفي ويخلق انسجاماً مع الواقع المرسوم بها:-

((سوف أحدّثك اليوم عن الأفعى .....

يوم أفني كلّ ما خلقتُ

ستعود الأرضُ محيطاً بلا نهاية

مثلما كانت في البدء
وحدي أنا ســـــأبقى
وأصير كما كنت قبلاً
أفعى ، خفيّة عن الإفهام.

تلك يا حبيبتي ترنيمة لإيزيس ... سجّلها المصريون القدماء قبلما تتشوّه صورة الأفعى في الأذهان، كان ذلك في الزمن القديم الذي اتّخذت فيه الربّة المقدسة الأولى رمزاً هو أقرب ما يكون لطبيعتها، كانت الأفعى رمز الربّات إنانا وعشتار وإيزيس ، بل كانت رمزاً لكلّ الإلهات على اختلاف أسمائهن ... كانت الإنسانية .... لا ترى بأساً في أن تحكم النساء ... وأن يتّخذن من الأفعى شعاراً ،... ولو استطعنا أن نفرغ صورتها – الأفعى ... من كلّ أحكامنا الوهمية الموروثة والمضغوطة في عقولنا بنقل خرافات وثقافات توالت في الأزمنة الاخيرة ودعمتها الاعتقادات الساذجة المتينة ، لرأينا الأفعى مجردة ، الأفعى في ذاتها ، بعيداً عن أوهامنا . ... هل تعلمين يا ابنتي ... انّ مائة بالمئة من الأفاعي لا تهاجم إنساناً إلاّ إذا اعتدى عليها ، أو عبث بجحرها، أو اقترب من ذريتها . الأفعى كائن مسالم في الأساس ، ينأى بنفسه بعيداً ، ويميل دوماً للانزواء، عنفها مبرّر بأسباب واضحة ، لأتنزع للهجوم إلاّ إذا هوجمت ، وفي هجومها إنذار لا غدر، فهي تنتصب محذّرة ، فإن ابتعد عنها مصدر الخطر المهدّد ، انسربت مبتعدة ، وإن لم يلق إنذارها صدىً عن المهاجم ، نهشته خاطفةً ، وهربت))(٧)

لغة الرسائل لغة متفرّدة ، فيها خطاب الأم الى البنت بلغة مسترسلة في المعلومة والنصيحة ، تطلّ علينا بألفاظ لا غموض فيها، وتشبيهات لا تحتاج الكثير من الثقافة لفهمها ، فهي ثقافة عاشها الكاتب في مجتمع عشنا معه تقاليده وأعرافه وأحيانا سذاجته التي أقحمت على عقولنا معلومات اتضح لنا خطؤها وابتعادها عن أي أصل ديني أو مصدر حضاري أو تراثي . تأتي هذه الرسائل لتصحّح لنا المعلومات، وتوقفنا أمام حقائق اللغة والتراث والحضارة ، فنفاجأ ممّا تعلمناه، ومما حفظناه وترسخ في عقولنا .

هذه الرواية تقدّم لنا نوعاً متميزاً من الفن السردي ما يتجاوز المفهوم التقليدي لروايات الرسائل رواية تراث وتاريخ وحضارة كما يجب أن يُعرف التراث وكما يجب أن يُقرأ التاريخ وتُتَذوّق الحضارة ، رواية تأخذنا بجمال لغتها الأدبية وبنائها الفني الأخّاذ .

ونلمح في الرسائل أيضاً حديثًا عن لغة بعض المفردات وأصولها، يعرضها الكاتب من خلال مزاوجة اللغة بتوظيف الموروث الشعبي والأسطوري والعجائبي ، فنقرأ مثلاً في إحدى الرسائل:
((من عجائب العربية ... سرّ عجيب ترتبط بأصولها الأولى بأزمنة الأنثى المقدّسة، ففي العربية اسم مفرد لا يمكن جمعه واسم جمع لا يمكن إفراده، المفردة التي لا تجمع هي كلمة (المرأة) والجمع

الذي لا يفرد هي كلمة (نساء)، فالمرأة أبداً واحدة ، والنساء صورتها المتكثرة، بلا إفراد. المرأة ربّة فردة، والنساء مقدّسات كثيرات، كنّ بالأمس مقدّسات، ثم صرن ... مثلما أريد لهنّ: مدنّسات – ثم ساهمت اللغة – في إزاحة المرأة من علوّها المقدّس ... فاستحدثت ألفاظ دالّة على معان غريبة ... فاستعيرت مثلاً لفظة بعل للدلالة على الزوج، وجعلوا للزوجة لفظة حرم، فانظري كيف جلبوا لوصف الزوج اسم الإله المذكر القديم، الذي أزاح عشتار من عرش الألوهية (ويرد في هذه الرسالة بيتاً للمتنبي يقول فيه)

وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال)) (٨)

يؤكد لنا هذا النمط من الرسائل أنّ اللغة بوصفها ذلك النظام الذي يمكن أن يتحقّق على مستوى التعبير الأدبي هو الشكل الأدبي الذي لا يتجسّد إلاّ من خلال مجموع الأنظمة اللغوية؛ لأنَّ هو نفسه أصبح نظاماً اجتماعياً شأنه شأن اللغة (٩) فهي لغة متميّزة متعالقة بقوة مع اللغات الأسطورية والتراثية، ولاسيما أنّ اعتماد الرؤية التراثية مدخلاً منهجياً لمقاربة هذه الرواية يعدّ منفذاً الى مستويات متعددة للنص، ولعلّ ما يميز اللغة هنا أنها لغة رؤية مغايرة للأشياء هي السبب في تعدّد تلك المستويات .

والجدير بالذكر أنّ كلّ رسالة تضمّ في الأقل مستويين: مستوى التعبير أو (الدوال)، ومستوى المحتوى أو (المدلولات)، وتلاقح هذين المستويين هو ما يؤلف الإشارة أو مجموعة الإشارات. والرسالة التي تتألف على وفق ذلك يمكن أن تصير هي نفسها مستوى تعبيرياً جديداً لرسالة ثانية تكون امتداداً لها، ولاسيما إذا اعتمدنا منهجاً تفكيكياً. أو بمعنى آخر تصير (إشارة)، أي إنّ الرسالة الأولى تكون (دالًا) للرسالة الثانية، وهكذا، ولعلّ الرسالتين الآتيتين توضّحان ذلك :-

((ولقد عبد العرب الأنثى قبل الإسلام، عبدوا الّلات والعزّى ومناة ، الآلهات اللواتي ورد ذكرهن في سورة النجم ، بعد آيات تشير الى الإقتراب من الله لمسافة بسيطة ، ((قاب قوسين أو ادنى)) إقرئي الآيات وتدبّري معانيها وتسلسلها ، وانظري كيف انعطف النص بقوة حرجة بعد الرؤى المعراجية ، ليذكرالإلهات الثلاثة ... (وتنحرف الرسالة فجأة لتذكر هذه الحادثة) : -

منذ أسابيع ، إحدى القرويات جاءتني تحمل على صورها ابنتها الصغيرة ، البنت في الثانية من عمرها ... سألتُ امها عن اسمها ..)) (١٠)

تنتهي الرسالة هنا، ثم تبدأ اخرى بطريقة نشعر أنها دالّ على الأولى: ((أنا أمك يا ابنتي، أنا الوالدة، أنا الرحم المقدّس الذي انبثق منه وجودك قبل ثلاثين سنة، وأنا الملتاعة التي سلبوك منها))(١١) .

إنّ طبيعة الرسائل هنا ذات طبيعة متحركة سردياً، وبإتقان حبكة محترف في صناعة تبدو أحياناً مضمرة باستخدامها أقنعة كثيرة تختفي من ورائها ،ولعلّ الجمالية اللغوية هو القناع الأكبر

الذي يمكن أن نميّز فيه نوعين من الجمل: نحوية وأدبية، وكلاهما يدخل ضمن الجمل الثقافية المتولّدة عن الدلالة العامة لوظيفة اللغة.

ولا بُدّ أن نعرّج على لغة العنوان أيضا التي يعدّها نقاد كثيرون من عتبات أي نصّ، إذ تظلّ إشكالية عنوان أي عمل أدبي قائمة حتى بعد وصوله الى أيدي القراء ، فالعنوان جزء مهم وحيوي في الاتفاق المتخيّل بين الروائي والقارئ – طرفا العملية الأدبية – ويكتسب العنوان أهميته من طبيعة هذه العلاقة ، وطبيعة العمل الروائي نفسه . فعنوان (ظلّ الأفعى) احتل دورًا بنائيًا في تكوين النص وتوجيهه وخلق آليات تبادله التأثير مع القارئ، وقد حدّد العنوان ومنذ البداية طبيعة التلقي ومستويات قراءة النص، ولاسيما في توافقه – العنوان – مع معطيات اللغة مضمونًا وجمالًا، فلغة العنوان لا تختلف عن لغة الرسائل في هذه الرواية، كلمتان محمّلتان بالرموز والإيحاءات الكثيرة، منبعهما ثقافة وتراث أطلّا علينا على رأس هرم رواية تمتعت بلغة فلسفة أدبية صوفية قلّما نقرأها في رواياتنا العربية.

٢- المستوى الدينيّ:

نُظر للمرأة – وعلى مدى آلاف السنوات – على أنّها تجسيد الآلهة على الأرض ،فكلّ العبادات كانت مؤنثة في أصولها، حتى انّ الديانات القديمة – كما تذكر المعجمات – صيغت بطريقة سيطر عليها الحضور الأنثوي، ولم تستطع النصوص التوراتية التخلّص من ذلك الحضور، فخرجت الديانة من معايير التبشير والانتشار الى معنىً مرتبط بنزعة أنثوية أموميّة كانت موجودة بوفرة في مصر (القديمة) وفي سومر وبابل ايضاً.

لقد كانت المرأة تُشبّه بالأرض التي تحتضن البذور– كما يذكر مانفرد لوركر– إذ انتشرت عبادة الأنثى والآلهة الممثّلة لها في كل الديانات القديمة، مثل: (ديميتيرا) ربّة الأرض والثمار والحصاد اليونانية، و(هيرا) ربّة الزواج والخصب اليونانية، وهي أخت (زيوس) وزوجته. (وأثينا) ربّة الحكمة الإغريقية التي يتفجّر منها الإبداع والابتكار.

وتدخل الأمثلة الأصيلة العقل الواعي على هيئة رموز وأساطير ،و تنتمي رموز كثيرة منها الى (الأم العظيمة) أي النموذج الأصليّ، فهي التي تلد، وهي الآلهة التي تخرج منها جميع أنواع الحياة، وتنتمي اليها جميع أنواع الحياة(١٢) .

لكن شيئًا فشيئًا أصبحت السيادة للرجل – كما يوضّح المؤلف – وأُزيحت المرأة لتكون مساوية للعبيد. ولعلّ تجلّي المعجزة والنبوّة في شخصية السيد المسيح مثال على محاولة تنحية السيدة العذراء التي تشكّل جزءًا مهمًا من تلك الهالة النبوية. ولنا أن نذكر هنا إنّ تدنيس المرأة بدأ منذ أن جاءت نصوص اليهودية التي حجّمت المرأة وأخذت من مكانتها الشيء الكثير ، وذلك بعد أن تمّت إزاحتها بالتدريج من الألوهية والقداسة التي استمرت ما يقارب الثلاثة آلاف سنة، وبسبب

تغييرات تتعلّق بتطوّر الدولة اقتصادياً وعسكرياً أخذ الرجل شيئاً فشيئاً يأخذ محل المرأة، ولاسيما في إنشاء الجيوش لاسترداد ما نوزع عليه من ملكية وذلك عندما بدأ استيطان الناس في مناطق استقر فيها اقتصادهم، الأمر الذي أظهر لنا بالتدريج الإله المذكر، وهذا التقدّم بالتأكيد جاء مع تراجع دور المرأة.

ويقول (يوسف زيدان): إنّ هناك تناولاً آخر في الرواية على المستوى الدينيّ، وهو عدّ المرأة كائناً نجسًا طارئًا على العبادة، وهذا التحوّل جاء من جانب اليهودية ايضاً التي كانت ترى نفسها محاطة بأمجاد مصر القديمة، وحضارة بابل وسومر وهي حضارات كانت معبوداتها القديمة تحلّ بالأنوثة والآلهات، مثل: (إيزيس، إيسيت، وتاسوع، وغيرهن كثير). كلُّ هذا قبل تشويه صورة المرأة ، وهذا التشويه شاركت فيه المسيحية التي هي متمّمة للشريعة اليهودية – فالأديان تكمّل بعضها – ولو أنّ المسيح جاء مصلحاً لليهود على ما هو مفترض (١٣)

كل ذلك تطرحه الرواية من خلال استشهاديات بالشعر، وبعض النصوص من أناشيد الديانات الوثنية القديمة، الى جانب ترانيم ربّات الحضارات القديمة (عشتار، عشتروت، إيزيس):

((عشتار أيتها السيدة المانحة للحياة
أشكو لك عمّا يؤرقني
فاستمعي الى كلماتي المنهكة
واغفري لجسدي المتألّم
فأن قلب عبدك يؤلمه انصرافك عن شكواه
أنا آشور ناصربال ، عبدك المملوء آلاما
المتواضع لك
عابد بهاء ألوهيتك))(١٤). (من ترنيمة للملك آشورناصربال ١٠٤٩ ق.م) .

ولم يخل هذا الطرح من لحظات تأمل فلسفية الى لحظات دينية الى وقفات وجد صوفية يستمدّ منها الكاتب تراثه في الاسكندرية يوضّح فيها الانسانية متجسّدة في الأنثى التي يكملها الرجل، ولعلّنا نلمح هذا التوضيح في إحدى هذه الرسائل التي نقرأ منها:

((... لأنّ البشر قديماً كانوا يعرفون قدر الأفعى ، كانوا يبجّلونها باعتبارها رمزًا وتجليًّا، وصورة للربّة الخالقة للأنثى المقدّسة في كلّ الحضارات القديمة، كان الناس في مصر القديمة يؤمنون بأن الإله الأكبر (آتوم) يتّخذ في الأرض صورة الأفعى ، وتنبّهي هنا يا ابنتي، الى أنّ أتوم ذاته هو صورة إلهية متأخرة نوعًا ما، ولأنها (متأخرة) فهي ذكورية ، أمّا الصورة الإلهية المصرية الأصيلة الأولى المعروفة بأسم (وازيت) فهي صورة الربّة الأنثى، الخالقة التي اتخذت قبلاً ومنذ ما قبل الأسرات، صورة الأفعى المحيطة بالوجود)) (١٥)

ويتبيّن لنا ما أُريد إخفاؤه من خيط أسرار – بين الأنوثة والذكورة – في محاولة تغليب أحد طرفي هذا الخيط بالتحريم المعنّف، الذي قد يصل إلى حدٍّ جعلها مدنّسة، فيستباح تهديدها، فنقرأ:((حكمت النساء كثيراً في فجر الحضارات الانسانية، كنّ حاكمات وقاضيات في معظم الحضارات القديمة ، حتى انقضى النصف الأول من حضارة مصر ومن حياة سومر، ثم تغيّر الحال، فجاءت اليهودية لتحرّم على المرأة أن تكون حاكمة أو قاضية، بعدما دنّس كتبة التوراة بضربة واحدة المرأة والأفعى، ونجحت اليهودية فيما كانت تحلم به، فأفرغ شعار الربّات (والأرباب) والملكات العظيمات من مضمونه القديم المتوارث لآلاف من السنين)) (١٦).

إنَّ جوهر الإنسانية كما يراه يوسف زيدان واحد لا يكتمل إلاّ بالمزيج الإنساني الجامع بين الذكورة والأنوثة، وهذا ما تنادي به أفكار عجزت نظرتها عن التمحوّر مثل الرهبانيات وغيرها، عجزت حتى عن التساؤل فيما إذا كانت هناك نظرة أوسع الى الانسان، الخيط الرابط بين الذكر والأنثى، لخلق ذلك التوازن بينهما روحيًا، خيط رفيع لكنه قادر على عودة مكانة المرأة أيقونة في الوجود، كما يرد في الرسالة الآتية: ((وقد دلّت الاكتشافات الأثرية على إنّ أولى مظاهر الدين كانت مرتبطة بإعلاء الأنوثة. وكانت أولى الآثار الباقية من عصور الإنسانية الأولى، أعني رسوم الكهوف، عبارة عن صور بدائية للأشياء تحلّق على أبعاد متساوية، بصورة امرأة حبلى! وكانت أولى التماثيل التي صنعها الإنسان قبل ثلاثين ألف سنة، عبارة عن دمى لامرأة حبلى، وكانت أولى أشكال الديانة في الحضارات القديمة، كانت تقوم على عبادة الربّة والألوهية المؤنثة، وفي الثلاثة آلاف سنة الأخيرة صار الوعي الإنسانيّ ينتقل في الطريق المعاكس، من الأرض الأدنى (الرجل/ السيد) الى السماوي الأعلى (الربّ/ الإله) ومن هنا جاءت فكرة أنّ الملك ابن الإله ، وإنّ الحاكم ظلّ الإله)) (١٧)

وعلى الرغم من أنَّنا لسنا بصدد عرض الصراع ثم الترابط بين الدين وما فيه من سلطة والذكورة وما فيها من قوة، ولاسيما في مراحل معينة من تاريخ الحضارات ، لكنّنا ونحن نطرح مسألة المستوى الديني في هذه الرسائل وجدنا حتميّة ارتباط هذا المستوى بمستويات أخرى فرضت نفسها وبقوة ، سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية وسياسية، من هنا كان المستوى الديني عنصراً أساسياً في موضوعنا، ولاسيما أنه شكّل الجزء الأكثر تأثيراً في دائرة هذه الحياة، وفي صراع مفكريها وعقولها ضد أفكار بالية لا تقبل التغيير وترفض طرح كلّ جديد بل تصل حدّ تهديد كل من يعترض على فرضياتها ويفكّر بعيداً عن ركبها.

٣- المستوى التاريخيّ الحضاريّ:

تقوم الحضارة العربية على مركزية الكلمة، ومن هنا لا يسعنا تجاهل النص فيها ، لذلك يمكننا

القول: إنّ جدل الانسان مع الواقع وحواره مع النص هو الذي أنشأ الحضارة (١٨) وحيث إنّ الرواية تتعلق بتفسيرات الكاتب للأنثى ومكانتها في الحضارات الموغلة في القدم ، فلا عجب من طرح هذه الرواية نصوصاً كثيرة حول الأنثى، وما يتعلّق بها في التراث الشرقي القديم ، الى جانب تناولها قضية قداسة الأنثى والتحولات الثقافية الدرامية في صورة المرأة في أذهان الثقافات السائدة حالياً في المنطقة العربية. ومن هنا كان طرح الكاتب هذه الحقائق الحضارية والتاريخية على لسان والدة البطلة، كلّ ذلك في مواجهة زوج الأبنة وما يعيشه من فارق واضح بينه وبين فكر زوجته ثم بين سكنه المتواضع وسط بيوت فارهة وبين الوضع الاجتماعي لزوجته التي تمنّعت عنه بتصرفاتها الغريبة – التي يعدّها ترفا منها – هذا الزوج بات لا يهتم بزوجته قدر انزعاجه من حرمانه من حقوقه الشرعية منها.

ثم يأتي تحوّل مهم في الأحداث يتمثّل بترك الزوجة المنزل – بعد أن قرأت رسائل أمها وما فيها حول كلّ ما يعلي من شأن المرأة – وهذا التحول يبيّن لنا لمحات كثيرة امّحت أو ضاعت او كما يرى بعضهم (تعمّد طمسها)، فبنظرة واعية لما جاء في صفحات العهد القديم –كما يقدمه لنا المؤلف– نفهم ما جاءت به الانسانية من حقائق قدّست فيها الأنوثة ورفعت من شأن الانثى آلاف السنوات، فيكفي أنها أيقونة الحياة وسرّ ديمومتها بولادتها حيوات جديدة ، حتى أنّ الالهة القديمة في حضارات الهند ومصر وغيرها، مثل: إيزيس، عشتار، اللات، إنانا، آلهات عبدها الإنسان لأنه اعتبرها الأصل، وكما يصنّف الكاتب (يوسف زيدان) بقوله: الأمومة طبيعة والأبوة ثقافة، الأمومة يقين، والأبوة غلبة الظن ، الأمومة أصل في الأنثى ، والأبوة فرع مكتسب ، سرّ الأمومة الدفينة في كلّ أنثى ، منذ لحظة ولادتها ، حتى لحظة استمرارها في الأنثى التي تنجبها:

((لن ألد الاّ كما تلد الأنثى ، قلت ذلك فانسحب أبوك من حضرتي
متكسّر الأركان، كنت واعية تمامًا بلحظة إطلالتك الأولى، لحظة
اقتران ألم المخاض بنشوة الخلق والإيجاد، وامتزجت ساعتها
معاناة انبثاقك من باطني بمعاناة انبثاق
الروح في بدنك، لحظتها بكيت مثلما بكيت، بكينا معاً
وتحققت بأننا، أنت وأنا، توحّدنا مع الأفعى
التي تنبثق من جلدها القديم لتتجدّد حيّة عصية عن
الإفهام ، لقد شعرت وقتها يا ابنتي إنني إذ ولدتك
هكذا، فأنني وهبتك أول ارتباط بالأفعى المنبثقة من ذاتها،
من جلدها القديم، من وجودها السابق (وجودي أنا) منبعثة
الى وجودها المتجدّد، الدائم، المرتبط بالخلود، وجودك أنت))(١٩)

من هنا كانت المرأة مبجّلة في المجتمع بوصفها، مصدر قيمة الجماعة وأصل روحها. فإعلاء شأن الأنثى انصهر مع مفاهيم الأديان القديمة ، لقد استطاع يوسف زيدان أن يرصد ملامح التطور التاريخي الحضاري لوضع المرأة والرجل من خلال الأم التي هربت من بيت يتحكم فيه الجد بأفكاره المتحجّرة ، الجد الذي طرد الأم المثقفة من بيته؛ لأنَّها ناقشت فرض سلطانه من خلال قواعد صارمة، أصغى لها جميع مَن في المنزل إلّا هي، فباتت في نظره: الملعونة المستحقّة للطرد والمدنّسة التي لا تستحق أن تربّي حفيدته.

ولنا أن نذكر هنا ونحن في صدد الحديث عن إعلاء شأن المرأة دلائل لغوية واخرى علمية تطرّقت الرسائل اليها، لعل ابرزها تسمية الأفعى والجمع بينها وبين الأنثى، لكن الأم جعلت ذلك دليلًا على أن الأفعى – في الحضارات القديمة – هي رمز الحياة والخصب والنماء. والحية في اللغة بمعان عديدة ، فهي من الحياة – والحية عكس الميتة – والحياة النمو والبقاء والمنفعة، والآلهة هي الحية العظيمة، وفي بيان مادة لوه (لأبن منظور)، الّلاهة هي الحية، والّلات صنم مشهور يكتب بالتاء (اللات) وبالهاء (اللاه) والأخير هو الأصح ،وأصله لاهه وهي الحية ، والحية نوع من الحياة سمّيت بذلك لأنها تلتفّ ولا تبرح مكانها(٢٠)، ولم تأخذ الأفعى هذه المكانة المشينة إلّا في وقت لاحق ولأسباب – كما ذكرنا – عسكرية واقتصادية علا بعدها الرجل واحتلّت الذكورة مكان الأنوثة الأصل، وهذا المبدأ الذي جاءت به التوراة هو مبدأ صفحاتها القديمة، صفحات سمّيت حضارة وبعضهم يحلو له أن يطلق عليها البداوة وأصولها، وبين هذا وذاك، وبين دلائل امّحت وحجج أُعلنت، انتهت قداسة الأنثى، وانتهت الصفات الأصل للأفعى. فنقرأ في إحدى الرسائل حيث تقول الام لأبنتها:

((والأفعى تعرف دومًا طريقها انتبهي اليها إذا
انسربت في مساراتها ، كيف تنساب برشاقة
ناعمة ... لا تكاد تلامس الأرض ، وهي تدلف الى حيث
تريد ، لا تصطدم بشيء في طريقها ... مشيها إبحار فوق
الأسطح – فوق أمواج الرمال الناعمة – على أقسى الصخور
صلابة – بين الأدغال وأغصان الشجر – الزحف، ألا ترين
انّ الجيوش قد اختارت هذه الكلمة بالذات لتعبّر
عن تنقلاتها ، يقولون زحف الجيوش لا (مشي الجيوش)
فاذا تقهقر الجيش ، يقولون انسحب ، والزحف
والانسحاب يا ابنتي ، هو شكل حركة الأفعى
من قبل أن تصير للإنسانية عساكر وجيوش)) (٢١)

ونقرأ ايضًا:

((وكان القدماء يجلسون في المعابد أو خارجها
(في مناسبات خاصة) ليستمعوا بإنصات
وخشوع الى نصوص الأساطير، وفي هذه
النصوص ... تكرار لبعض الأسطر التي يرد
السطر الواحد فيها عشرات المرات ، متخلّلا
بالسياق، على هذا النحو الوارد في أسطورة
إنانا الى العالم السفليّ)) (٢٢)

إذن الربّات والآلهات، إنانا وعشتار وإيزيس اتخذت الأفعى رمزاً لها، وعندما يروي لنا الروائي يوسف زيدان هذه الصفحات التاريخية الحضارية فإنه يضع أمامنا واقعاً تمّ تغييره تغييرًا كبيرًا، تغييرًا مع بطئه لكنه حوّل ثقافات وبدّلها، ومن هنا نؤيد ما جاء به (الغذامي) الذي يرى انّ الرجل قد أفلح في استثمار المعطى الحضاري الإنسانيّ، واستجمعه تحت إرادته عبر جهود جبارة امتدّت من التاريخ ليثمر عن ترتيب إنساني جديد يقف الرجل على قمّته ، فصارت الحضارة مرتبطة بالرجال، وهذا أمر لم يكن ليتمّ، إلاّ بواسطة عمليات تهميش متواصلة أدّت الى فرز وتمييز الأجناس والأعراف، وانتهت الى نشوء مركزية حضارية ذكورية. (٢٣).

٤- نسق الرسائل:

إنَّ كلَّ مستوى من العناصر اللسانية في النصِّ، وما يربط بعضها ببعض هو ما يطلق عليه النسق، وأيّ اختلال في هذه العلاقة بين العناصر تُفقد النسق توازنه وتغيّر معالمه (٢٤)، وفي هذه الرواية هناك النسق العام (الحكاية والرسائل) والنسق الخاص بمستويات الرسائل ، اللغوي والديني والتاريخي والحضاري ، وما يعنينا في هذا المبحث أننا لم نلمح أيّة فجوة بين نص الرواية والرسائل، فالنص ، كما أوضحنا سابقاً – احتل الجزء الأول من الأحداث، في حين يأتي النص الثاني من الرواية على شكل رسائل، ولغة المتكلم (الأم) جاءت بضمير الأنا، وفيها يلجأ يوسف زيدان في سرديته الى ثقافات قديمة طرحها عن طريقها. وهذه الثقافات التي تعود بنا الى خمسة آلاف سنة ق.م محورها الأساس في الرسائل أنَّ الأنثى هي الطاقة الاساس في هذا العالم والمصدر الحقيقي لكلّ قوة إيجابية. من هنا تجاوزت تلك الرسائل كونها وسيلة إبلاغ ثقافية تقليدية الى إبداع تجلّى بنصوص فرضت تميّزها.

ولا بُدّ أن نبين أنّ هناك مَن يعدّ استخدام الرسائل الرواية حيلة فنية، وآخرون رأوا أنها طريقة سرد للثقافة، أيّاً كان السبب فبرأينا انّ أسلوب الرسائل هو الأكثر تأثيرًا، وتعبيراً عن مدى عمق الصلة واستمرارية التواصل الإنساني أولاً والثقافي ثانياً بين الطرفين الأم وابنتها. فالكلمات المسطّرة

على ورق تمزّق بعضه – كما أوضح لنا الكاتب قبل استعراضه بعض تلك الرسائل – تبقى أكثر تأثيراً في نقل إحساس الآخر، الى جانب طقوس قراءة الأوراق ومحاولة معرفة إحساس كاتبها من ملاحظة طريقة إمالة الحرف أو الانتباه الى رعشة القلم وارتباكه في هذه الكلمة أو تلك.

إذن تأسس النصف الثاني من الرواية على تقنية الرسائل، وأقام هذا النصف إطاراً سردياً خاصاً، واقتضى هذا الاعتماد في إحداث تغيير جوهري في نظام المكوّنات السردية لمؤلف الرواية من مروى ومروي له (٢٥)، وتقنية الرسائل لا تخلو من صعوبة إذا لم يحسن الكاتب التعامل معها بجمالية وذكاء تُبعدان القارئ عن الملل ويشعر معهما بانسيابية الأحداث على الرغم من اختلاف نصفي الرواية.

ونحن هنا أمام رسائل فيها أكثر من مستوى على صعيدي الثقافة واللغة، مهمتهما توعية القارئ وتثقيفه واستبدال معلوماته القديمة التي نشأ عليها وقدّسها بعد أن عدّها حقائق ومسلّمات لا تقبل النقاش.

فالرسائل تكشف لنا كيف تفكّر الأنثى وكيف تحسّ، ونحن هنا، وإن كنا لا نريد استعراض الرسائل في هذا الجزء من البحث ولكنه أمر لا بُدَّ منه لإيضاح أساس الموضوع الذي سار عليه نسق تلك الرسائل:

((وهكذا تزحزحت الإنسانية عن الإنسانية التي
أفسدت ثلاثين سنة سابقة ليتمّ خلال الف سنة
تالية لاندثار سومر، عمليات معقدة تمّ خلالها الانتقال
التدريجي من اكتشاف الزراعة الى الاستيطان الى الحيازة
الزراعية الواسعة ... فتأكدت هرميّة السلطة،
ومن الحماية والدفاع الى المبادرة لدرء الخطر الى استدامة
الجيوش وإعلاء العسكرية باسم حماية الجماعة وثروات
الجماعة، وبهذه الجدلية الثلاثية انتقلت الإنسانية
يا ابنتي من روح الحضارة الأنثوية الى أزمنة السيادة
الذكورية انتقلت من الولادة الى الإبادة))(٢٦)

نسق الرسائل إذن اختلف بنية وتركيباً عن الأول، نسق طرح فيه الكاتب مستويات ثقافية جمعت التاريخ والحضارة والاديان، وكان لا بُدَّ لأيِّ متلقٍ أن يستقبل النص بتفكير واعٍ وبلغة عالية تحاول أن توازي لغة الرسائل الحافلة باستعارات حضارية دينية إلهية ممتزجة بثقافة الأنوثة وتاريخها ، حتى باتت – تلك الرسائل – بمثابة المرجع والمصدر لمن يريد التزوّد بتلك المعلومات التي تغيّر وجهة نظر القارئ للكون والحياة ومفاهيمها لينظر بعدها من دون خوف الى الوجود نظرة جديدة

لأنه تزوّد بحقائق جديدة بدّلها بكلّ ما كان يشكّل أفكاره ومعتقداته من قصص ومسلّمات لم يكن يضعها بأيّ حال من الأحوال على طاولة النقاش. من هنا فإنّ رواية (ظلّ الأفعى) قدّمت عونها – إن كان هذا هو هدفها – الى الإنسان ليعرف نفسه وليضعها موضعها الصحيح في مداها الأرحب، في الإنسانية والوجود

إنَّ المعارف والعلوم التي حوتها هذه الرواية هو نسق ممتزج من ثقافات الأديان التاريخ والحضارة ،كمّ معلوماتي أتاح لنا مناقشة الآراء؛ لأنَّها تحرّض الفكر على النقاش وطرح الأسئلة. وقد ساعدت دراسة الروائي يوسف زيدان للحضارة والفلسفة أن يعرف مكانة الأنثى ويضعها في روايته موضعها التاريخي الصحيح ، وقد اتّضح ذلك من خلال أناشيد الديانات الوثنية القديمة للآلهة عشتار وأوزيس التي بثّها في الرواية هنا وهناك، والتي استطاعت أن تمنح المرأة عامة وقدسيّة الأنثى خاصّة، إجلالاً وتقديساً لعلّ نوعا من ردّ الاعتبار يعاد لمكانتها المنسية المُساء اليها. فكنا أمام بنية متكاملة، ونسق متلاحم من خلال نص لا نكون على عجالة حين نقول أنّه نصٌّ تراثيّ بعبق الحضارات العريقة، وقدسيّة أزمان بدء الديانات.

نتائج البحث:

إنَّ الرسائل التي كانت مستويات ثقافتها محور بحثنا، وضعتنا أمام مجموعة من الدراسات المركّزة حول مكانة الأنثى عبرا لتاريخ الحضاريّ، استعرضنا من خلالها كيف يمكن أن تتركّز في أذهاننا مفاهيم خاطئة، ولسنوات الى أن نقف أمام الحقيقة، فنتشبّث بها، ونحاول الوقوف على أرض جديدة، صلابتها تكمن في صحة معطياتها.

فكانت لنا من تلك الرسائل مستويات: فعلى صعيد المستوى اللغويّ، عكست لنا لغة رسائل ظل الأفعى مستوى ثقافة الشخصية (الام) الأستاذة في علم الاجتماع، لغة جمالية فيها من البوح الكثير، مستوى عكس لنا صدى المأثورات الشعبية والتراثية والدينية.

أمّا المستوى الدينيّ؛ فقد عكس لنا مفهوم العبادات القديمة والأساطير والديانات التي كانت الأنثى هي المسيطرة فيها جميعها، وارتبطت بكلّيتها بنزعة الأمومة التي عُدّت في وقتها الأساس في الخصب والفكر والنماء.

كذلك في المستويين التاريخي والحضاري اللذين ارتأينا جمعهما كونهما يعكسان ثقافات وحضارات موغلة في القدم، فقد كانت ثقافة حضارة، احتلّت مكانتها اللائقة في تاريخ لم يعطها حقها لاحقا، بل شوّه صورتها بربطها بمفهوم خاطئ للأفعى بعد ان شُوهت هي كذلك بتغير رمزها ومدلولها.

أمّا نسق الرسائل؛ فقد اتّضح أمامنا أنه نسق ثقافي بامتياز لمزجه كلّ ما مرّ ذكره ، فكانت تلك الرسائل وسيلة إبلاغ ثقافية ، وسيلة وضعت لنا الإنسان في مكانه المفترض وجوده في الإنسانية بمداها الأرحب .

لقد كنا أمام رواية متميّزة و مؤلف قادر على حبك روايته بألمعية بدت في حبكة البناء السردي الذي تجلّى في عبارات الرسائل وألفاظها، وتراكيبها اللغوية في بعديها الحسّيّ والمجازيّ. ولا ننسى تلك الموسيقى التي أضفت شعرية عالية أمدّت القارئ بدلالات صوفية عززته استشهاديات قرآنية ومأثورات الشعبية وُظّفت بشكل صحيح في الرسائل. من هنا كانت الرواية بمستوياتها تتمتع بنسق خاص أمدّ رسائل الرواية إيقاعاً شعرياً إيحائياً وصل مباشرة الى المتلقي المتأمل في تلك اللغة التي استطاع الروائي قولبتها لجعلها مطواعة لنقل الثقافة والحقائق بهذا التفرد والإبداع .

الهوامش :

١- ينظر : حسين السماهيجي وآخرون ، عبد الله الغزامي والممارسة النقدية ، دار الفارس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ ، ص ٧٠ .

٢- المصدر السابق ، ص ٧٠

٣- ينظر : علي أفرفا ، صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني ، دار الطليعة ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ١٠ .

٤- ينظر : إبراهيم خليل ، بنية النص الروائي ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٠ ، ص ٢٩٠ .

٥- ينظر : شعيب حليفي ، شعرية الرواية الفانتاستيكية ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩ ، ص ١٩٧ .

٦- م . باختين، شعرية دوستوفسكي ، ترجمة د . جميل نصيف ، توبقال ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٦ ، ص ٢٦٥

٧- يوسف زيدان ، دار الهلال ، ص ٥٥- ٥٦ .

٨- المصدر السابق ، ص ٦٨ – ٧٠ .

٩- ينظر : نبيلة إبراهيم ، فن القص،دارغريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، (د. ت) ، ص ٨٥ .

١٠- يوسف زيدان ، ظل الأفعى ، ص ٦٣ .

١١- المصدرالسابق ، ص ٦٤ .

١٢- ينظر : ما نفرد لوركر ، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة ، ترجمة صلاح الدين رمضان ، مراجعة د. محمود ماهر ، الطبعة الاولى ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ١٣ .

١٣- ينظر : حوار مع يوسف زيدان ، الموقع الألكترونيar k q antnara / hwr-m-irwyy -ywsf-zydn

14- يوسف زيدان ، ص ٣٧ .

15- المصدر السابق ، ص ٥٨ .

16- المصدر السابق ، ص ٥٦

17- المصدر السابق ، ص ٨٣- ٨٤ .

18- ينظر : نصر حامد أبوزيد ، مفهوم النص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤ ، ص ٩ .

19- يوسف زيدان ، ص ٦٠ .

20- ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة الاسلامية ، تركيا ، ص ٢١٣ وينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (ليره) ، ج ١٣ ، ص ٥٣٨ ، وينظر : مانفرد لوركر، ص ١٥.

21- يوسف زيدان ، ص ٥٧ .

22- المصدر السابق ، ص ٧٣- ٧٤ .

23- ينظر : عبد الله الغذامي ، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥ ، ص ٩١ .

24- ينظر : احمد يوسف ، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، منشورات الاختلاف . الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧ ، ص ١٢٠ . وينظر : عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت ٢٠٠١ ، ص ٧٧ .

25- ينظر : محمد صابر عبيد ، المغامرة الجمالية للنص الروائي ، عالم الكتب الحديث ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٠ ، ص ٤٤ .

26- يوسف زيدان ، ص ٨٧ .

The Culture of Correspondence in The Novel (The Shadow of the Snake) by Youssif Zaidan

Asst. Prof .Dr. Suhair Salih Abu Joloud
Al- Mustansirryah University
College of Arts - Arabic Department

Abstract:

This study talks about the novel (The Shadow of the Snake) which revolves around the women and their position in the cultures and literature, and the reality of the sacred status of women in the old religions and civilizations after being insulted and abused in the inherited customs and traditions. The novel tackles a two- part text. The first part deals with a stereo type of an Arab husband: arrogant and cruel .The second part is about the wife who is introduced to her mother through a collection of letters. Finding these letters is a major turning point in the novel; it is the climax by which the main character is introduced to the real status of women. The letters contain old songs and religious rhymes inspired by the folklore and through which we (the readers) are introduced to the etymology of different words and concepts. This novel presents a unique type of narration based on the technique of correspondence due to its impact on the reader and its role in deducing the connotative meanings. The novel is open to endless readings and it puts women in their right places ; using a civilized strategy and a right religious prospective.